عائشة عصمت تيمور

(٢)

عصرها

بزغ القرن الخامس عشر على ربوع الغرب فجراً ما برح ينتشرُ ويعمُّ حتى شمل بنورهِ نهضة التجدُّد الكبرى . وما تولَّى الاَّ وقد جاء بحادثين بدَّلا حظَّ البحر الابيض المتوسط وحفَّا مرافئهِ في الحركة التجارية والعمرانية . وهما اكتشاف فاسكو دي جاما طريق الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، بعد ان شقَّ كولمبس البحار وصولاً الى الاقطار الامريكية . وبينا التطوُّر يتتابعُ في الغرب حثيثاً سواء في العلم واسباب المواصلات وامتزاج الشعوب والصناعة والتجارة والثروة والحرية الفردية والكرامة القومية — كانت مصر ، وقد حُرمت من مرور تجارة الشرق ، تتقهقرُ ببطء حتى انقطعت العلاقات بينها وبين العالم . وظلَّت ثلاثة قرون يحكمها بالاسم ولاة عثمانيون وتدفع الجزية السنوية الى تركيا الاَّ انها تعتورُ فيها تلك الفئة الطاغية من المماليك « البكوات » . ففشت في انحائها الخزعبلاتُ والاوهام ، واشتدَّ النوز مهدَّداً بالامراض والمجاعات . والدول التي تتنافس الآن في اكتساب صداقتها كانت قد نسيت حتى الوجود من هذه البلاد الفريدة بتربتها وتاريخها وحضارتها العريقة ، الفريدة بموقعها الحربيِّ المنيل النفوذ السياسي والرواج التجاري لجمهِ بين القارات الثلاث وسيطرتهِ على طريق الشرقين

اي عجاجة لا تثيرُ اعمالُ الرجل العظيم ! هبط نابوليون الشرق يستغلُّهُ ويقيم عليهِ الركن الاوَّل من عرشٍ أراد أن يخيِّمَ ظلُّهُ على الشرق والغرب جميعاً . فهبَّت الدولُ تقاتلُ الجبَّار وتتحالف لهزيمة جحافلهِ . وصار القطر المهجور محجة الغايات لان البطل ادخلهُ في خريطة اطماعهِ

جاءت القوَّة العثمانية بقيادة القبطان حسين باشا وتكاتفت والحملة الانجليزية في الرحانية فزحفتا معاً على القاهرة . فسلَّم الفرنسيون نهائيًّا في سبتمبر ١٨٠١ بعد الاحتلال ثلاثة اعوام دون جني اية فائدة حربية . وكم من عمل يؤدَّى

في سبيل غاية تفشل ، فاذا به موفور الفائدة لغاية اخرى !

فقد اسفرت الاغارة الفرنساوية عن فوائد ثلاث — الاولى قومية . اذ شعر المصريون باهمية بلادهم وبمقدرة الشعب على ازعاج الحكومة المستبدة اذا هو اتحد وتضامن . كما لمحوا وميضاً من المدنية الاوربية الحديثة ورغبوا في اقتباسها

الفائدة الثانية علمية — اذ استصحب نابوليون جماعة من العلماء الاختصاصيين . فدرسوا طبيعة البلاد ومواردها ، وادخلوا الطباعة ونشروا الصحف وأسسوا « المجمع العلمي المصري » . وجالوا في مختلف الموضوعات ببحاث قيّمة . منها وصل البحر الابيض بالبحر الاحمر الذي سيستفيد منهُ ده لسبس . واحدثوا اصلاحات كثيرة ذهب جلُّها اما بقي منها جرثومة ستنمو بعد الآن على يد حكومة البلاد

الفائدة الثالثة سياسية — ان بين ضباط القوّة العثمانية كان ذلك الرجل الذي وُلد هو ونابوليون وولنجتون في سنة واحدة (١٧٦٩) وقد اعدّتهُ الاقدار ليخضد شوكة المماليك . ثم يسير بمصر الخطوة الاولى في سبيل التكوُّن الذاتي

... وبين رجال محمد علي رجلان يختلفان اصلاً وعملاً ، احدهما كرديّ وهو محمد تيمور بن اسماعيل بن علي كرد ، الذي كان ضابطاً وساعد في استئصال دولة المماليك حتى صار من خاصة الوالي الكبير . فترقّى في المناصب من كاشف ، الى محافظ ، وتوفي سنة ١٢٦٤ هـ . (١٨٤٧ م .) والآخر تركيّ الاصل وهو عبد الرحمن افندي الذي كان قبلئذٍ كاتباً في الديوان الهمايوني عند السلطان سليم الثالث . ثم صار ذا مكانة عند محمد علي حتى انهُ بعد وفاته دفنهُ في القلعة . وكان لسلالة هذين الرجلين ان تحمل علامة اليُمن . فقد تزوّج محمد تيمور بابنة عبد الرحمن افندي فكانا جدّيّ الشاعرة المباركين

***

ولدت عائشة قبل وفاة محمد علي بتسعة أعوام ، وتوفيت بعد تولية عباس الثاني بعشرة أعوام . أي انها شهدت تطوُّر بلادها على عهد أربعة ولاة هم محمد علي وابرهيم وعباس الاول وسعيد ، وثلاثة خديويين هم اسماعيل وتوفيق وعباس الثاني

كان لمحمد علي مطامع سياسية معينة فبذل المجهودات لتأييدها في الداخل بانشاء

المدارس الحربية والمستشفيات العسكرية ، وتنظيم الجيش وتخريج الاطباء ، ونشر المعارف وارسال البعوث الى أوربا لتتلقى العلوم الفنية والميكانيكية والحربية — مصلحاً في مصر كل شيء من الزراعة ، الى الصناعة ، الى الجيش . أما في الخارج فكان يؤيد مطامعهُ بالحروب والفتوح . هو الذي بعد أن أباد المماليك أخضع الوهابيين ، وقهر بلاد العرب ، وفتح السودان وسوريا ، وحارب الموره ، وهدَّد الاستانة بجيوش ولده ابرهيم حتى تصدَّت لهُ الدول خوفاً على راحتها . ولئن جلت جيوشهُ عن بلاد الشام سنة ١٨٤٠ فانهُ قضى آمناً من انَّ ولاية مصر والسودان ستكون وراثية في أسرته

وتتابع التطوُّر سلسلاً خلال ولاية ابراهيم التي لم تدم سوى شهرين اثنين ، وولايتي عباس الاول وسعيد حيث كان غرض التعليم محصوراً في تخريج موظفين للحكومة وضباط للجيش . وإن امتاز عهد سعيد بأمور ذات شأن ، منها وفاء ديون الحكومة ،وحذف الجارك الداخلية والاحتكارات،وارجاع الحرية الفردية وحق الملكية الى الفلاحين — بعد ان كان محمد علي ليتمكن من القيام بمشروعاته الكثيرة في وقت قصير ، قد جمع الاملاك بين يديهِ جاعلاً الحكومة تسيطر على كل تجارة مع الخارج . وتمَّ في عهد سعيد انشاء القناطر الخيرية التي بُدئ بها بامر من محمد علي .وسعيد هو الذي فوَّض الى صديق طفولتهِ ده لسبس ان يباشر حفر قنال السويس

بيد أن الاندفاع الاكبر جاء في عهد اسماعيل الذي ورث شيئاً كثيراً من يلمية جدّهِ وبعد نظرهِ . فعاد الى معالجة مشروعات محمد علي مرسلاً البعثات الى اوربا، موجداً المكتبة الاهلية ومتحف الآثار المصرية ،حافراً الترع للري ومجمِّلاً المدن الكبيرة ،عاملاً على نشر المعارف بالترخيص في نشر الصحف والمجلات وتأييد أهل العلم والادب وتقريبهم ، ممهِّلاً لغير المصريين الاقامة في بلادهِ، مقتبساً منافع مدنية الغرب وصابغاً مملكتهُ بصبغتها .حتى حقَّت على وادي النيل تلك الكلمة التي هي شعار الخديو اسماعيل وهي« لم تعد بلادي في أفريقا وانما هي قطعة من اوربا»

وكان همهُ الاول تأسيس المدارس والكتاتيب وانشاء وزارة (نظارة) المعارف التي عهد اليها في تنظيم المدارس على نمطٍ جديد فقسمت الى ابتدائية وثانوية وعليا.

وشاد دار الاوبرا التي وضع فردي الطلياني رواية « عائدة » لتمثل فيها خصيصاً للمرة الاولى . وهو الذي امر بتمهيد طريق الاهرام البديعة . ويقال ان تمهيدها تم في ستة أسابيع ليتسنى لاوجني الجميلة زوجة نابوليون الثالث (ويومئذٍ امبراطورة الفرنسيس) ان تزور آثار مصر العظيمة يوم تجيء بابنة الملك وجلالة — لحضور الاحتفال بفتح قناة السويس مع من حضر لذلك الغرض من عظماء العالم

وأصدر امراً في اواخر عهده يعلن رغبته في ان يحكم بواسطة مجلس نظار ، بعد ان كان اصدر أمراً بتشكيل مجلس نوّاب تأخذ الحكومة رأيهُ في ما تسنّ وتحوّرُ من النظم والقوانين . وكان كاهل مصر قد أثقل بالديون مما أدّى الى قبول الرقابة الاجنبية على المالية المصرية . فقام يوماً ينكر على الموظفين الاوربيين حق التدخّل في شؤون بلادهِ . فحملتهُ الدول اثر ذلك على التنازل لولدهِ توفيق تحت الرقابة الفرنساوية الانجليزية فيما يتعلق بالمالية . وهذا الرجل الذي جلس على كرسي الولاية باسم اسماعيل باشا ، كان قد خطا بمصر خطوةً اخرى في سبيل التكوّن السياسي فتخلّى ، ولكن ليس عن كرسي الولاية . بل نزل الخديو اسماعيل عن عرش الخديوية المصرية ، مهيّئاً لابنهِ مُلكاً يكاد يكون دستوريًّا

وتتابع الاصلاح في عهد الخديو توفيق الى ان شبّت الثورة العرابية مطالبةً — فيما طالبت بهِ — بالغاء الرقابة الاجنبية على المالية المصرية . وكان ما كان من احتلال انجلترا وتفويضها الى لورد دوفرن درس مختلف المشاريع وتنفيذها في مصر . وبعد توقّف القطر طامين خلال هذه الثورة ، استُطرد فيهِ التنظيم والتقدّم بحيث عكّس القاضي المفكّر المدقق الذي كانهُ قاسم امين ان يقول في ردّهِ الفرنسوي على الدوق دار كور ان :

« الحرية التامة سواء في التفكر والكتابة أصبحت مباحة ، وان المصري يتمتع الآن بكل ما ضمنه الاعلان الشهير من « حقوق الانسان » . واذا الجميع يتوقون الى العلم ويتطوق معتبرين ان هذا هو السبيل الوحيد للنهوض . منذ ثورة عرابي انتبه الشعب المصري لمكانته وكرامته . استنار ذهنه لجعل يهتم بنظام الحكم وبالشؤون العامة يقدرها ويحكم لها او طيها . وبالجملة فان مصراً تيقظت بالفعل »(١)

نشر قاسم هذا الكتاب سنة ١٨٩٤ . ولما توفيت عائشة بعد ثمانية اعوام كانت

(١) "Les Egyptiens"

حركة التطوُّر في ازدياد وقد اضيفت اليها عناصر فتية متنوعة

***

أهي يقظة الفكر عند الافراد تهيء اليقظة القومية ام هي يقظة الجمهور ومطالبهُ والاحوال المحيطة به التي تخلق الافراد وتحبوهم بالمواهب الضرورية ليتكلموا بصوت الجماعة ؟ أظنُّ ان التفاعل هنا محتم كما هو في كلّ امر آخر. فالافراد يخلقون الجمهور والجمهورُ يخلق الافراد . لأن القوى البشرية محكمة الترابط فيما بينها ، فاذا انتبهت احداها تأثرت بذلك الانتباه جميع القوى وهبّت متجدّدة ، نابضة ، مبدعة. كأنها الصوت الواحد يحدث هزةً في مكان من الهواء فتتناقلهُ الموجات المسارعة حتى يرنّ في اقطاب الفلك جميعاً

ولكن يخيّل انهُ قبل تنفيذ ايّ عمل يقتضي رسم خريطة خيالية جلية في الذهن الناضج الصافي. خريطة من الخرائط التي يسميها المتكلّمون « نظريات » . وهذه النظريات التي تشفي لذكرها شفاءُ العليلين هي من الاهمية بحيث ان الطبيعة لا تجمعُ عادةً (وان فعلت نادراً بشذوذٍ جميل) بين مقدرتيّ النظر والعمل في شخص واحد . اذ انّ لكلٍّ منهما صفات تنافي صفات الاخرى . يهيء النظريون الخرائط الذهنية ، فينظر فيها سواهم بعين النقد والتمحيص مستخرجين منها ما لاعم حاجة الوقت ، وينفذها آخرون فتصير شيئاً محسوساً يُستخدم ويخدم. كأنما هي « المُثُل الافلاطونية » التي بموجب نظريتها لا تكون المحسوسات الاّ انعكاس افكار هي كائنة في ذهن الإله الاعظم . تلك هي حكاية التلغراف اللاسلكي التي ابتدأت مع مكسويل وهرتز وبرنلي نظريات وتعديلات علمية ، فصارت مع ماركوني عاملاً آلياً تعنو لهُ مجاري الهواء في نقل الافكار . وتلك هي حكاية الفوّاصات التي كانت في كتب جول ڤرن الفرنسوي رُؤىً واخيلة علمية . فبسط اديسن الامريكانيّ لوزارة بحرية بلاده إمكان إنشائها في تقرير نسخهُ الالمان سرّاً ، وسيروها خلال الحرب مُدُنّاً متحركةً تحفر البحار وتصادر سفن الاعداء وسفن من كان لهم موالياً وظهيراً . وتلك هي حكاية الثورة الفرنساوية اعدّها الكتّاب والمفكّرون ، والثورة الروسية التي مهّد لها الروائيون والشعراء سبيلاً